الباب السادس

كروب النجاة من المخالفات والمعاصى

obeikandl.com

obeikandl.com

لقد تعرضنا فى الأبواب السابقة إلى التذكير ببعض الشدائد التى تصيب الإنسان من ضيق فى معيشته، أو مرض يلحق بصحته، أو ما يتعلق بأحوال الاجتماع البشرى، سواء أكان ذلك بالنسبة له فى خاصة نفسه، أو فى علاقته بأفراد أسرته الصغيرة، أو بأفراد مجتمعه الكبير، وكل هذه الشدائد مقدور عليها؛ لأن الصبر فيها من أعظم أسباب العون عليها.

وبقى أن نذكر كربا آخر، إنه كرب المخالفات والمعاصى، فهو من أشد الكروب على النفس التواقة إلى مغفرة الله، فلا يدرك شؤم المعصية إلا من توهج نور الإيمان واليقين فى صدره، وحينئذ يود لو يَفْتَكُّ نفسه من هذه الأغلال بكل مرتخص وغال، فللمعاصى غصص وعقابيل.

١- تفريج كرب أبى البشر آدم عليه السلام

لقد تعرض أبو البشر آدم - عليه السلام - إلى اختبار تكليفى من الله - تعالى - عقب خلقه ونفخ الروح فيه، حيث قد بوأه الله الجنة هو وزوجه حواء، وأحل له فيها سائر الطيبات، ولم ينهه إلا عن قربان شجرة بعينها: ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ**﴾[1] وهنالك عز على إبليس اللعين، طريد هذه الجنة، عز عليه أن يرى آدم وزوجه يتقلبان فى هذا الحبور والسرور، فنفث فى روعهما من سعار حقده مازَلَّت به أقدامهما، فالمؤمن غرٌّ كريم، والكافر خبٌّ لئيم: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُورِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)**

(١) سورة طه : ١١٨ ، ١١٩.

فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾(١).

وهنا حل بآدم وزوجه الشقاء، وزحفت على رأسيهما جيوش الكروب والهموم، وضاعف من همومهما عقاب الله لهما المتمثل فى قول الله - تعالى -: **﴿ . . . وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾**(٢) فأخذ آدم يجرى فى أرجاء الجنة وهو يسمع النداء الإلهى من جديد: «**أفراراً منى ياآدم؟**»، فقال فى خجل وحزن، وبَالٍ كَاسِف وقلبٍ حزين: «**بل حياء منك يارب العالمين**» وبهذا فقد شقى آدم بالمعصية شقاء لاحدود له، وهكذا يشقى العصاة من ذريته بسبب ذنوبهم.

وقد ترفق الله بآدم أبى البشر، وفتح له بابا من أبواب رحمته، حيث قد أقر بذنبه، فالإقرار بالذنب أول طريق التوبة، فقال ما أورده القرآن الكريم: **﴿ . . رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**(٣) ومن الأدعية التى ألهم الله بها آدم - عليه السلام - ما قاله مجاهد عند بيانه للكلمات التى تلقاها آدم من ربه فتاب عليه: «**الكلمات هى: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم**» ونحن نرى أن هذه الكلمات تخرج أنوارها من مشكاة الآية الكريمة.

ولقد فرج الله كرب آدم وزوجه بالتوبة عليهما، وقبول عذرهما، وهدايتهما إلى طريق الفلاح، وكان فى هذا الذى صدر منهما باب أمل ورحمة من الله للعاصين، كى ينهضوا بعد كبواتهم، ويواصلوا المسير بعد عثراتهم، ففى

---

(١) سورة الأعراف : ٢٠ - ٢٢.

(٢) سورة الأعراف : ٢٢.

(٣) سورة الأعراف : ٢٣.

الحديث الشريف: «**كل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**» فمن ارتكب معصية ثم رجع إلى الله فى إخلاص وصدق، فحق على الله وواجب عليه من غير موجب أن يفتح له أبواب التوبة والقبول، كما يتفضل عليه فيثيبه خيراً عن كل ما تعرض له من آلام وخز الضمير، ومحاولات التخلص من آثار معصيته، يقول الله - تبارك وتعالى - عن آدم: ﴿**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ**﴾[1].

وصدق رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذى: «**لايصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾**[2] وروى الطبرانى وابن عساكر أن النبى ﷺ قال: «**والذى نفسى بيده ما خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر**».

فارحمنا اللهم بترك المعاصى أبداً ما أبقيتنا، وارحمنا أن نتكلف ما لا يعنينا، وارزقنا حسن النظر فيما يرضيك عنا، يا أرحم الراحمين.

٢- تفريج كرب نبى الله سليمان عليه السلام

إن نبى الله سليمان - عليه السلام - هو ابن نبى الله داود - عليه السلام - وهما من أنبياء بنى إسرائيل، ولقد امتن الله - تعالى - عليهما بمننه الكثيرة، ونعمه الغزيرة الوفيرة، على نحو ما جاء فى الكتاب العزيز: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾[3] ولقد أجاب الله - تعالى - دعاء سليمان حينما سأله قائلا: ﴿**رَبِّ**

---

(١) سورة طه: ١٢٢.

(٢) سورة الشورى: ٣٠.

(٣) سورة النمل: ١٥ - ١٧.

اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

ويقول ربنا عن فضله على سليمان: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(٢).

وكان سليمان - عليه السلام - رجلا غَزَّاءً (أى كثير الغزو فى سبيل الله) فما سمع بملك فى ناحية من الأرض إلا قاتله داعيا إياه للإيمان بالله - تعالى - وكان يساعده فى ذلك حمل الريح لآلة حربه وجنوده، ولقد بلغ من حب سليمان للجهاد ما أوقعه فى كرب شديد؛ ذلك أنه رغب فى أن يكون له عدد غفير من الفرسان من صلبه، وكان له عدد من الأزواج قد يصل السبعين، ولم يكن التعدد على هذا النحو محظورا فى شرعه، فما كان منه إلا أن أقسم فى إحدى الليالى ليطوفن على نسائه، وكل واحدة منهن تنجب له ولداً يكون فارسا ومجاهدا فى سبيل الله - تعالى - ولكن فى غمرة مشاعره، وطمعه فى الخير ورجائه إياه نسى أن يتبع قسمه هذا بلفظ المشيئة فيقول: إن شاء الله تعالى، وذلك مروى عن أبى هريرة عند الشيخين وغيرهما، وفيه يقول النبى ﷺ: قال سليمان: «**لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ولم يقل إن شاء الله**» وفى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: «**والذى نفس محمد بيده لو قال (إن شاء الله) لجاهدوا فرسانا**».

---

(١) سورة ص : ٣٥ - ٣٩.

(٢) سورة سبأ : ١٢ ، ١٣.

لكن الذى ثبت عند البخارى «أربعون» بدلاً من «سبعين» وأن الملك قال له: قل: إن شاء الله، فلم يقل، وقصده أنه ترك الأولى فليس بذنب، فلم تحمل له امرأة اللهم إلا واحدة حملت وجاءت بولد ناقص الخلقة، فألقته القابلة على كرسى سليمان ليراه، وهنالك وقع سليمان فى كرب شديد، بلغ حد الفتنة، وأن الذى حدث له إنما هو من جراء مخالفته الملك، وهنا لم يكن أمامه من سبيل للخروج من ضائقته إلا بالرجوع إلى الله بسرعة فائقة، فهو الذى يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، ولقد صور القرآن الكريم هذا الكرب وتلك الشدة مقترنين بالدعاء والرجاء وطلب الملك الواسع من الله، فى قول الله - تعالى-: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾(١).

ولقد تمثل تفريج كربه فى غفران ذنبه، وتسخير الريح والشياطين له، يقول الله تعالى: ﴿**فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ**﴾(٢).

أرأيت - أيها القارىء الكريم - كيف يتفضل مولانا على عباده، فيجبر كسرهم، ويقيلهم من عثراتهم إذا ما تابوا وأنابوا، بل أرأيت كيف يرضى خاطرهم، ويعطيهم ما سألوا، مما لم يعطه أحداً غيرهم من النبيين، فيا كل مذنب، ويا كل خطاء: اتخذ من خطئك قوة دفع تقربك إلى ربك فإنه فى شوق إليك.

٣- تفريج كرب نبى الله يونس عليه السلام

إن نبىَّ الله يونس - عليه السلام - هو يونس بن متى، ويدعى ذا النون- أى

---

(١) سورة ص ، الآيتان : ٣٤ ، ٣٥.

(٢) سورة ص ، الآيات : ٣٦ - ٤٠.

صاحب الحوت - كذلك، وهو نبى مرسل، أرسله الله إلى أهل نينوى ببلاد الموصل من أرض العراق، فدعاهم إلى الله، وبالغ فى دعوته، ولكنهم لم يستجيبوا له، فبرم منهم وهاجر عنهم قبل أن يأمره الله بذلك، وكان الصواب أن ينتظر حتى يؤمر بذلك، ومن أجل هذا التصرف فقد وقع فى كرب وشدة عظيمة، لاينجى منها إلا عفو الله رب العالمين، فلما خرج وكان عليه أن يركب سفينة لكى ينتقل إلى الجهة الأخرى من النهر، وقد كانت السفينة مشحونة بالركاب، فما كان من السفينة إلا أن توقفت بهم فى عرض النهر، فأعلن ربانها أن بها عبداً آبقاً (هارباً) من سيده، وكان من عادة البحارة أن السفينة إذا ركبها عبد آبق فإنها لاتجرى على الماء، ولما كانوا لايعرفون ذلك الآبق على وجه التحديد، فإما أن يعلن هو عن نفسه، أو أن يُجْرُوا قرعة لإخراجه، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس، فقال: نعم، أنا آبق، ورمى بنفسه فى الماء، فابتلعه الحوت وهو مليم، أى آت بما يلام عليه، وذلك مصداق قول الله - تعالى-: ﴿**وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ**﴾[1] وقد مثل له ذلك المستَقَرُّ الجديد لونا من الكروب الشديدة، فما كان من رب العالمين إلا أن ألهمه دعاء لتفريج كربه، فقال: «اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين» وفى ذلك يقول الله - تعالى-: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾[2].

ولقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «إن يونس - عليه السلام - حين بَدَا له أن يدعو بالكلمات حين ناداه وهو فى بطن الحوت فقال: ﴿**اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين**﴾ **فأقبلت الدعوة نحو العرش، فقالت الملائكة:**

---

(١) سورة الصافات : ١٣٩-١٤٢.

(٢) سورة الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨.

يارب هذا صوت ضعيف مكروب من بلاد غريبة، قال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: لا يارب، قال: ذلك عبدىً يونس، قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل نرفع له عملاً صالحاً متقبلاً ودعوة مستجابة؟ قال: نعم، قالوا: يارب أفلا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه بالعراء».

وقد تمثل تفريج كرب هذا العبد الصالح والرسول الكريم فى إخراجه من بطن الحوت، وما أجراه الله عليه من النعمة، حيث أنبت عليه شجرة من اليقطين، وأمده بألطافه الخفية، وفى ذلك يقول الفتاح العليم: **﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾**(١).

وذلك كله بسبب توفيق الله له، وإلهامه التسبيح فى تلك الظلمات السحيقة: ظلمة بطن الحوت، وظلمة النهر، وظلمة الليل، وصدق الله القائل: **﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾**(٢).

أرأيت - أيها القارئ الكريم - كيف تأتى ألطاف الله بالعبد حينما يلهمه الله التسبيح؟! وصدق الرسول الكريم إذ يقول فيما رواه عنه سعد بن أبى وقاص: **«دعوة ذى النون وهو فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم فى شيء قط إلا استجاب الله له»** وعن **سعد بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسمُ الله - عز وجل - الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطي، دعوة يونس بن متى»** قال: قلت: يارسول الله: هى ليونس بن متى خاصة، أو لجماعة المسلمين؟ قال: **«هى ليونس بن متى خاصة، وللمسلمين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله - عز وجل - : ﴿فَنَادَىٰ فِى الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ﴾**(٣) فهو شرط الله لمن دعا به».

---

(١) سورة الصافات: ١٤٥ ، ١٤٦.
(٢) سورة الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤.
(٣) سورة الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨.

فاللهم يامن نجيت يونس فى بطن الحوت، وحفظت الحبيب محمداً بنسيج العنكبوت، نسألك يا حيًّا لا يموت: أن تضرب علينا سراداقات عزك، وأن تكنفنا وتحوطنا بألطافك الخفية، من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، يا ذا الجلال والإكرام.

٤- تفريج كرب قوم يونس

إن نزول الشدائد والكروب بآحاد الناس وأفرداهم أمرٌ مشاهد ملموس، وتأتى ضراعة العبد على قدر وطأة الكرب وشدته، كما أن فرج الله يأتى لهذا المكروب أو ذاك من منطلق اطلاعه على دخيلة نفسه، فهو - سبحانه وتعالى- يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، أما أن ينزل كرب بأمة بأسرها فذلك من الأمور التى تقع فى حدود الندرة ودائرتها، والقرآن الكريم حينما يحدثنا عن قصة يونس - عليه السلام - مع قومه، فإنه يوقفنا على حقيقة كفرهم به وتكذيبهم له، الأمر الذى دعاه إلى الرحيل عنهم بغير إذن من الله، فوقع هو فى كرب شديد نجاه الله منه، وفى ذلك يقول الإمام على - كرم الله وجهه - : بعث الله يونس بن متى إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، فأقام فيهم يدعوهم إلى الله - تعالى - ثلاثا وثلاثين سنة، فلم يؤمن به إلا رجلان، كان أحدهما عالما حكيما، والآخر كان عابداً زاهداً وقال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما: لما أيس يونس من إيمان قومه دعا عليهم، فقيل له: ما أسرع ما دعوت على قومك! ارجع إليهم فادعهم أربعين ليلة أخرى، فإن أجابوك وإلا فإنى مرسل عليهم العذاب، فرجع فدعاهم سبعاً وثلاثين ليلة فلم يجيبوه، فقام خطيبا فيهم وقال: إنى محذركم العذاب إلى ثلاثة أيام إن لم تؤمنوا، ثم قال لهم: إن آية ذلك أن تتغير ألوانكم، فلما أصبحوا تغيرت ألوانهم، فقالوا لبعضهم: قد نزل بكم ما قال يونس، وإنا لم نجرب عليه كذبا، فانظروا، فإن بات فيكم الليلة فأتمنوا من العذاب، وإن لم يبت فيكم فاعلموا أن العذاب مصبحكم، فلما كان ليلة الأربعين ورأى يونس تغير ألوانهم علم أن العذاب نازل بهم، فخرج من بين أظهرهم، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب.

ولقد تمثل كرب هؤلاء القوم، وتعاظمت شدتهم حينما رأوا آلات العذاب وأدواته على رءوسهم، وقد أصبحت منهم قاب قوسين أو أدنى، يقول سعيد بن جبير: تغشاهم العذاب كما يغشى الترابُ القبر إذا دخل فيه صاحبه، فقد أغيمت السماءُ غيماً أسود هائلا، يدخن دخاناً شديداً، فهبط هذا الدخان حتى غشى مدينتهم واسودت أسطح منازلهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك لامحالة، فطلبوا نبيهم يونس وبحثوا عنه فى كل مكان فلم يجدوه.

فاستشعروا بشاعة ما حل بهم، وأن ذلك إنما كان بسبب إعراضهم عن دعوة نبيّهم، فما كان منهم إلا أن ذهبوا إلى رجل من بقية علمائهم، ونحسبه ذلك العالم الحكيم الذى آمن بيونس وبدعوته، فقالوا له: قد نزل بنا من العذاب ما ترى، فما ترى؟ فقال لهم: «**قولوا: ياحىٌّ حينَ لا حَىّ، ياحى حين تحيى الموتى، لا إله إلا أنت**» إنها دعوة صادقة من رجل صادق، ونصيحة مخلصة لأمَّة مأزومة مكروبة، فقذف الله فى قلوبهم التوبة، وألهمهم الرجوع إليه، فلبسوا المسوح وخرجوا فى صعيد واحد بأنفسهم ونسائهم وذريتهم ودوابهم فى صورة أشبه بصورة البعث، نعم إنه بعث جديد لهم، وحياة جديدة تنتظرهم، فلا حياة على الحقيقة إلا فى الرجوع إلى الله تعالى، فأظهروا الإيمان والتوبة لله، وأخلصوا النية، وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب والأنعام، فتعالت الأصوات، واختلط الحنين بالأنين، وتضرعوا لله قائلين: آمنا بما جاء به يونس.

منظر يجل عن الوصف، ويفوق كل تصور وخيال، لو قدر لها أن تقدم للناس فى عرض واقعى لتقطعت منها نياط القلوب، ولأرجعت كل ضال وغاوٍ إلى حظيرة الحق الربانية..

ولقد بلغ من حسن توبتهم أنهم ترادُّوا المظالم التى كانت بينهم، حتى إن الرجل ليأتى إلى الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيقتلعه ويرده إلى صاحبه..

فكان من لطف الله بهم أن رحمهم واستجاب دعاءهم، وقبل توبتهم، وكشف عنهم العذاب، وأرسل لهم نبيهم يونس مرة ثانية، وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾[1] وصدق رسول الله إذ يقول: «**قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**».

فاللهم يامقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك يا ألله، ورد الناس إلى الحق والعدل، واهدنا صراطك المستقيم، وما ذلك عليك بعزيز يارب العالمين.

٥- تفريج كرب كعب بن زهير بن أبى سُلمى

إن «كعب بن زهير بن أبى سلمى» كان يقيم مع أخ آخر له يُدعى «بُجَيْراً»، فلما فتح الله على رسوله وعلى المؤمنين مكة المكرمة، خرج منها ناسٌ هاربين، وكان من بينهم «كعب» و «بجير»، ظل هذان الأخوان يجوبان صحراء الحجاز بأغنامهما حتى أتيا منطقة لبنى سعد، يقال لها: «أبرق العُزَّاف»، وهى عبارة عن واد يوجد الماء فيه بوفرة، ويقع على بعد عشرين ميلا من المدينة المنورة، وسُمى هذا الوادى بهذا الاسم؛ لأن أصوات الجن وعزفهم كانت تسمع بهذا الوادى، وقد استقر بهم الْمُقَام فى هذا الوادى بعض الوقت، وما هى إلا فترة وجيزة حتى عرض «بجير» على أخيه «كعب» أن يرعى أنعامهما، وينطلق هو (بجير) إلى المدينة ليقابل النبى ﷺ ويتعرف على حقيقة دعوته، فإن وجده صادقا اتبعه، وإلا فارقه، فقبل كعب، وانطلق بجير، حتى أتى رسول الله ﷺ فدخل هذا الرجل دائرة الهداية الكبرى، فسمع من رسول الله ما أثلج صدره، فآمن به وأقام عنده.

---

(١) سورة يونس: ٩٨.

فملا بلغ ذلك «كعبًا» غضب وكتب لأخيه الرسالة التالية شعرا:

ألا بلّغا عنى «بُجيرا» رسالة ... فهل لك فيما قلتُ ويحك هل لكا؟
سقاك بها «المأمون» كأساً رَوِيَّة ... فأنهلك «المأمون» منها وعلَّكا
ففارقت أسباب الهدى واتبعته ... على أى شىء وَيْتَ غيرك دلَّكا؟
على مذهب لم تَلْقَ أما ولا أباً ... عليه، ولم تعرف عليه أخاً لكا
فإن أنت لم تفعل فلستُ بآسف ... ولا قائل إمَّا عثرتَ : لعاً لكا

فلما بلغت هذه الرسالة «بجيرا» أخبر بها رسول الله ﷺ وهى أبيات تطفح بالحقد على الإسلام، وقلب الحقائق؛ حيث نسب لرسول الله الغواية بدلا من الهداية، فما كان من الرسول إلا أن أهدر دمه (أى دم كعب) وقال: «**من لَقِىَ كعباً فليقتله**» فكتب إليه بجير يخبره بذلك، ويدعوه للحضور مسرعاً؛ فإن رسول الله ﷺ لايرد أحداً جاء إليه تائباً، ولا يطالب بما تقدم قبل الإسلام، فالإسلام يهدم ما كان قبله.

* وماذا كان من أمر كعب بعد أن بلغه ذلك الخبر؟

* لقد كان من أمر كعب بعد هذه الرسالة ما كان، لقد عرض نفسه على القبائل المجاورة لكى تجيره فأبت كلها، وهنا تملكه الغم والضيق، حتى لقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فلم يبق له ملجأ من الله إلا إلى الله، فهداه الله فأنشأ قصيدته العصماء «بانت سعاد» والتى تقع فى ثمانية وخمسين بيتا، يمدح فيها رسول الله والمهاجرين، ويستعطف رسول الله، ويطلب منه الأمان، ثم خرج حتى وصل المدينة، فنزل على رجل من «جهينة» كانت بينه وبينه معرفة، فأتى به المسجد، ثم قال له: هذا رسول الله، فقم إليه واستأمنه، فقام «كعب» إلى رسول الله حتى جلس بين يديه، وقال: يارسول الله إن «كعبَ بنَ زهير» قد جاءك ليستأمنك تائبا مسلما، فهل أنت قابلٌ إن أنا جئتُك به؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقال: يارسول الله أنا هو، أى: أنا كعب، ثم إن كعباً قام وأخذ ينشد قصيدته بين يدى رسول الله ﷺ وهو يستمع إليه، ومن بين ما جاء فى هذه

القصيدة قوله:

أنبئتُ أن رســـول الله أوْعَدنـى ... والعفو عند رســـول الله مأمولُ

وقد أتيـت رســـول الله معتـذراً ... والعذر عند رســـول الله مقبولُ

مهلاً هـداك الـذى أعطـاك نـا ... فِلَةَ القرآن فيها مواعيظ وتفصيلُ

لا تأخُذَنّى بأقوال الوشـــاة ولـم ... أذنب، وقد كْثُرتْ فِىَّ الأقاويلُ

إلى أن وصل إلى قوله:

إنَّ الرسـول لَنُـورٌ يُسْتَضَـاءُ بـه ... مُهَنَّـدٌ مـن سُـيوف الله مَسْلُولُ

وهنا جاءه الفرج من الله؛ فامتن عليه رسول الله ﷺ وألقى عليه بردته التى كانت عليه لقاء ما قدم للإسلام من قول صادق، ولقد نالت هذه القصيدة شرف استماع النبى إليها، وإجازته لقائلها ومكافأته عليها، وهكذا فرج الله كرب «كعب ابن زهير» وأبدله بعقيدة الشرك عقيدة التوحيد الخالص، وهكذا تتضح لنا ألطاف الله بعباده، فقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، ومن هنا - وكما يقول العارفون-: إذا خُيِّرت أن تختار، فاختر ألا تختار، وقل كما قال النبى المختار: «**اللهم خِرْ لى واخْتَرْلِى**» آمين آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

٦- تفريج كرب نِفاق حَرْمَلَة

إن النفاق فى حقيقة أمره لون من ألوان الاضطرابات النفسية، وسخيمة من سخائم النفس البشرية، يوقعُ صاحبه تحت قوتى جذب متصارعتين، إحداهما حقيقية، والأخرى زائفة وغيرُ حقيقية، أما القوة الحقيقية فهى تلك التى تعتمل فى صدره، وتجيشُ بها نفسه، إنها قوة الكفر - والعياذ بالله تعالى - وأما القوة الأخرى الزائفة فهى ذلك القناع الذى يَلْبَسه للناس زوراً وبهتانا، حيث يتصنع

الإيمان بالله تعالى، وكم تكلفه هذه القوة الأخيرة من تصنع وتظاهر عندما يرى المؤمنين بالله، على نحو ما عبر عنه رب العالمين فى محكم كتابه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾[1] وعندما ينصرف المنافق إلى أترابه وأقرانه وأشباهه ونظائره، فإنه يحلق فى سماء الفرح والسرور، وقد سجل القرآن عليهم ذلك فى قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2] ومن جهة أخرى فإنهم يزعمون أن تظاهرهم أمام المؤمنين بالإيمان هو نوع من الفتح الربانى، أو الكشف الصمدانى، فكانوا يقولون لبعضهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3].

ولقد ورد عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - أنه أخْبَرَ أن رجلا من المنافقين يقال له حرملة، قد أحس بالصراع النفسى الذى يعيشه من جراء النفاق، فهو يحمل بين جنبيه نفسا مضطربة غير مستقرة، تجبره على أن يلبس للناس أقنعة مزيفة ومصطنعة، فكان يحاول أن يقنع نفسه بهذا الصنيع الذى ارتضاه لنفسه مسلكا، ولكن هيهات هيهات!! فقد أصبحت نفسه غير محتملة لهذا الذى يجده من الضيق والشك والحرج، حتى لقد شكل له هذا الشعور النفسى الضَّاجر كربا شديداً يرجو تفريجه، ولكن كيف السبيل؟ لم يجد حرملة بُدًّا من الذهاب إلى رسول الله ﷺ لكى يبثه شكواه، ويطلب منه العون على تفريج كربه، ويكمل أبو الدرداء روايته فيقول: جاء حرملة إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله: الإيمان هاهنا - وأشار إلى لسانه - والنفاق هنا - وأشار إلى صدره - ولا أذكر الله إلا قليلا.

---

(١) سورة البقرة: ١٤.

(٢) سورة البقرة: ١٤، ١٥.

(٣) سورة البقرة: ٧٦.

وبهذا فقد عرض حرملة شكواه، وجهر بها إلى خير خلق الله، فهو يصف حال المنافقين بدقة وصدق، فهو يشعر بالمرض والعلة، ويلتمس الشفاء والدواء من خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ . .

ولقد تم تفريج كرب هذا المنافق بدعوات طاهرات دعا له بهن رسول الله ﷺ حيث أخبر أبو الدرداء أن النبى دعا له قائلا:

«**اللهم أعطه قلبا شاكراً، ولساناً ذاكراً، وارزقه حبى وحب من أحبنى**» فما فرغ رسول الله من هذه الدعوات حتى امتلأ قلب الرجل إيماناً بالله، وحبًّا لرسول الله، فما كان من حرملة وقد حول الله حاله إلى أحسن حال، وانطلقت مواهب الخير فى نفسه، فتمنى من كل قلبه أن يذوق المنافقون حلاوة الإيمان الخالص بالله رب العالمين فقال: يارسول الله: أعرف ناساً من المنافقين كنت رأساً فيهم أى أنه يعرف جماعة من المنافقين كان هو زعيمهم - أفآتيك بهم؟ فقال له النبى ﷺ: «**من جاءنا استغفرنا له، ولا تهتك على أحد من الناس ستراً**». وبهذا يضع النبى ﷺ النقاط على الحروف، فهو يعلم أن داء النفاق داء خبيث، ولن يبرأ العبد منه إلا إذا كانت عنده رغبة فى الشفاء عن طريق المصارحة بالحقيقة كما فعل حرملة - رضى الله عنه - فمن أتى النبىَّ طائعاً استغفر اللهَ له، كما أنه ينبه حرملة بألا يهتك أسرار الناس عن طريق إخباره إياهم بنفاقهم، فما أطيب شمائلك يارسول الله!!

أرأيت أيها القارىء الكريم كيف يشقى المنافقون، وكيف يهنأ المؤمنون؟! فاحذر النفاق والمداهنة، واعلم أن النفاق أخفى على القلوب من دبيب النمل، فسل الله من فضله، وأكثر من الصلاة والسلام على نبيه وعبده سيدنا محمد، حتى تنجلى عن قلبك كل ظلمة ووحشة، والله هو الهادى إلى سواء السبيل.